نداءات سورة آل عمران

obeikandi.com

obeikandl.com

سورة آل عمران

السورة من السور المدنية الطويلة ، وعدد آياتها مائتا آية.

فضلها:

عن النواس بن سمعان رضي الله عنه قال : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : «**يؤتى يوم القيامة بالقرآن وأهله الذين كانوا يعملون به ، تقدمهم سورة البقرة ، وآل عمران**» [1].

وهي تحتوي على سبعة نداءات للمؤمنين.

* * *

(١) رواه مسلم، كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: فضل قراءة القرآن وسورة البقرة، حديث (٨٠٥)، والترمذي، حديث (٢٨٨٣)، وأحمد في مسنده (١٨٣/٤) .

obeikandl.com

إنما الطاعة لله ورسوله ﷺ

النداء الأول

يقول الله - تعالى-:

﴿يَا أَيُّهَا الَذينَ آمَنُوا إن تُطيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَذينَ أُوتُوا الكتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إيمَانكُمْ كَافرِينَ (١٠٠) وكَيْفَ تَكْفُرُونَ وأَنتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّه وفيكُمْ رَسُولُهُ ومَن يَعْتَصم باللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٠٠، ١٠١].

مناسبة النص لما قبله :

وبخ القرآن أهل الكتاب على كفرهم وصدهم عن سبيل الله، فقال: ﴿**قُلْ يَا أَهْلَ الكِتَاب لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَاءُ**﴾ [آل عمران: ٩٩] ، ثم أنذرهم بوعيد شديد ، فقال: ﴿**وَمَا اللَّهُ بغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ**﴾ [آل عمران: ٩٩].

وفي هذا النص نبه عباده المؤمنين إلى مكر أهل الكتاب وسوء طويتهم، فحذرهم من الاغترار بهم والركون إليهم، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَذِينَ آمَنُوا إن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَذينَ أُوتُوا الكِتَابَ...﴾.

سبب النزول :

روي أن شاس بن قيس اليهودي كان عظيم الكفر، شديد الطعن على المسلمين، شديد الحسد، فاتفق أنه مر على نفر من الأنصار من الأوس والخزرج فرآهم في مجلس لهم يتحدثون، وكان قد زال ما كان بينهم في الجاهلية من العداوة ببركة الإسلام، فشق ذلك على اليهودي فجلس إليهم وذكرهم ما كان بينهم من الحروب قبل ذلك، وقرأ عليهم ما قيل في تلك الحروب من الأشعار، فتنازع القوم وتغاضبوا، وقالوا: السلاح السلاح، فوصل الخبر إلى النبي ﷺ فخرج إليهم فيمن معه من المهاجرين والأنصار، وقال: «**أترجعون إلى أحوال الجاهلية وأنا بين أظهركم، وقد أكرمكم الله بالإسلام، وألف بين قلوبكم؟**» فعرف القوم أن ذلك كان من عمل الشيطان، ومن كيد ذلك اليهودي، فألقوا السلاح، وعانق بعضهم بعضًا، ثم انصرفوا مع رسول الله ﷺ، فما كان يوم أقبح أولاً،

وأحسن آخرًا من ذلك اليوم، فأنزل الله - تعالى - هذه الآية [1].

معاني المفردات والتراكيب :

﴿إن تُطِيعُوا﴾ : عبر بإن الشرطية للإشارة إلى أن المؤمنين في حذر ويقظة لما يفعله أعداؤهم ، وقلما يخدعون بخداع أعدائهم ، وهذه القلة والندرة تناسبها الأداة **(إن)**.

﴿فَرِيقًا﴾ : نكرة تفيد التقليل والتحقير؛ لأن الفريق الذي يضلل أهل الكتاب وقد يغتر بهم المؤمنون كان قليلاً كابن أُبي وأضرابه.

﴿الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ﴾ : التعبير باسم الموصول: **(الذين)** يفيد الذم والتوبيخ؛ لأنهم رغم تنَزل الكتاب عليهم وعلمهم به.. يضللون غيرهم.

﴿وكَيْفَ تَكْفُرُونَ وأَنتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وفِيكُمْ رَسُولُهُ﴾ : استفهام المقصود به العتاب والإشفاق عليهم مما يخطط لهم وهم غافلون.

من لطائف القرآن الكريم :

الأولى: عبر بالمضارع ﴿تُطِيعُوا﴾ للإشارة إلى أن المحاولة والمحاولتين لا تنقل المؤمنين إلى الكفر ، أما استمرار المؤمنين في استماعهم والتلقي عنهم فهذا ما لا تحمد عواقبه.

الثانية: كلمة ﴿فَرِيقًا﴾ يفهم منها أن أهل الكتاب منهم من آمن وسار في طريق الهداية ، ومنهم من ركب هواه فضل وأضل الآخرين.

الثالثة: في التعبير بقوله: ﴿**أُوتُوا الكِتَابَ**﴾ أن ذنوب الجاهلين قبيحة وشنيعة ومن العلماء أشد قبحًا وشناعة ، ولذلك كان الوعيد لهم شديدًا ، كما في قوله - تعالى -: ﴿**إِنَّ الَذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ البَيِّنَاتِ والْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الكِتَابِ أُوْلَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ ويَلْعَنُهُمُ اللاَّعِنُونَ**﴾ [البقرة: ١٥٩].

الأحكام الفقهية :

الحكم الأول: أن أهل الكتاب سقطت عدالتهم، فلا يوثق في كلامهم ولا في شهادتهم، والواجب أن يسير المؤمنون على ضوء قول الله - تعالى-: ﴿**يَا أَيُّهَا الَذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ**

---

[1] التفسير الكبير للفخر الرازي ٤/١٧٣، ١٧٤، ط دار الفكر العربي.

﴿فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ [الحجرات: ٦].

الحكم الثاني: أن الذنوب تنقسم إلى صغائر وكبائر ، وكل ذنب له عقوبته اللائقة به، إن لم يتول الله صاحبه بالعفو والمغفرة ، ومن سمع ضلالات أهل الكتاب وافتتن بها ثم خرج من دينه فجزاؤه القتل ، لما جاء عن النبي ﷺ : ((**من بدل دينه فاقتلوه**))(١).

الحكم الثالث: أن كل شيء مرده إلى الكتاب والسنة ، ومن ابتغى الهدى في غيرهما أضله الله.. قال الله - تعالى-: ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾.

وقول الرسول ﷺ : ((**تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي أبدًا كتاب الله وسنتي**))(٢).

المعنى العام :

هناك وجه شبه واتصال بين نداء الله للمؤمنين في سورة البقرة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٠٤] وبين المؤمنين في هذه السورة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ﴾. ففي النداء الأول: نهى عن مشابهة غير المؤمنين، وفي الثاني: نهى عن طاعتهم فالولاء لله ورسوله ﷺ ، والبراء من أعدائهما(٣).

يحذر المولى تبارك وتعالى عباده المؤمنين أن يطيعوا طائفة من أهل الكتاب؛ لأنهم يعملون جاهدين على ردهم إلى الكفر بعد الإيمان ، وذلك لحسدهم وبغضهم عليكم، قال - تعالى -: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ... ﴾ [البقرة: ١٠٩].

ثم ذكر تعالى السبب الأعظم ، والموجب الأكبر لثبات المؤمنين على إيمانهم وعدم تزلزلهم عن إيقانهم ، وأن ذلك من أبعد الأشياء فقال:

(١) سبق تخريجه.

(٢) تفسير القرآن العظيم ٦/٢٠٠.

(٣) تفسير آيات الأحكام للشيخ السايس ٢/٥، ٦، روائع البيان ١/٣٩٩.

﴿وكَيْفَ تَكْفُرُونَ وأَنتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وفِيكُمْ رَسُولُهُ﴾ أي: الرسول بين أظهركم يتلو عليكم آيات ربكم كل وقت، وهي الآيات البينات التي توجب القطع بموجبها والجزم بمقتضاها، وعدم الشك فيما دلت عليه بوجه من الوجوه، خصوصًا والمبين لها: أفضل الخلق، وأعلمهم وأفصحهم، وأنصحهم وأرأفهم بالمؤمنين، الحريص على هداية الخلق وإرشادهم بكل طريق يقدر عليه، فصلوات الله وسلامه عليه، فلقد نصح وبلغ البلاغ المبين، فلم يبق في نفوس القائلين مقالاً ، ولم يترك لجائل في طلب الخير مجالاً [1].

إن طاعة غير المسلمين والتلقي عنهم: بداية الهزيمة الداخلية، والتخلي عن الدور الذي من أجله أنشئت الأمة الإسلامية، وهو دور القيادة والخلافة في الأرض.. فهم لا يحرصون على شيء حرصهم على إضلال هذه الأمة عن عقيدتِها.. فهذه العقيدة هي صخرة النجاة، وخط الدفاع ، وأعداؤها يعرفون هذا جيدًا.

ومثال ذلك: كان ضياع القدس مرتين :

المرة الأولى: كان ضياع القدس على يد الصليبيين سنة ٤٩٠هـ كان بعد ذهاب الخلافة الراشدة.

وأما الضياع الثاني: فقد كان في القرن العشرين، عندما غُيبت الشريعة الإسلامية واستُبدلت بالقوانين الوضعية.

والآن !!! فلن تعود القدس إلا بالعودة إلى شرع الله - تعالى- عقيدة وقولاً وعملاً.. قال الله - تعالى-: ﴿ومَا لَكُمْ لا تُؤْمِنُونَ باللَّهِ والرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الحديد: ٨].

وجاء في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال لأصحابه يومًا: «**أي المؤمنين أعجب إليكم إيمانًا؟ قالوا: الملائكة، قال: وكيف لا يؤمنون والوحي ينزل عليهم؟ قالوا: فنحن. قال: وكيف لا تؤمنون وأنا بين أظهركم؟ قالوا: فأي الناس أعجب**

---

(١) تيسير الكريم الرحمن ١٤١.

إيمانًا؟ قال: قوم يجيئون من بعدكم يجدون صحفًا يؤمنون بما فيها» [١].

ثم أخبر الحق عز وجل أن من اعتصم به فتوكل عليه، وامتنع بقوته ورحمته عن كل شر، واستعان به على كل خير ﴿فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ موصل إلى غاية المرغوب؛ لأنه جمع بين اتباع الرسول ﷺ في أقواله وأفعاله وأحواله وبين الاعتصام بالله.

ما ترشد إليه الآيتان الكريمتان :

١- أن الإيمان عقيدة راسخة، وقول صادق، وعمل صالح.

٢- أن أهل الكتاب ضلوا وأضلوا غيرهم.

٣- أن قبول الأراجيف والشبه من أهل الكتاب يجعلهم يتمادون في باطلهم.

٤- أن القرآن والسنة والتمسك بهما يثبتان الإيمان في القلوب.

٥- أن من توكل على الله - تعالى- يكفيه.

* * *

(١) **ضعيف**: رواه الحسن بن عرفة في جزءه برقم (١٩)، ومن طريقه البيهقي في الدلائل (٦/٣٥٨)، وإسناده ضعيف لعلتين: أ- إسماعيل بن عياش رواه عن المغيرة، وهو من روايته عن غير الشاميين ، وهي ضعيفة. ب- المغيرة بن قيس: منكر الحديث. انظر تفسير القرآن العظيم ٧١/٢ ط الشعب .

obeikandl.com

obeikandi.com

الأمر بالتقوى وما يتصل بها من أعمال

النداء الثاني

يقول الله - تعالى- :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٠٢) وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٠٣) وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٤) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٠٢- ١٠٥].

مناسبة الآيات لما قبلها :

بعد أن حذر المؤمنين من طاعة أهل الكتاب في مكرهم وكيدهم أمرهم هنا بالتقوى وهي الخصلة الجامعة لكل خير، والمحذرة من جميع المعاصي والمخالفات.. فهذا من باب ذكر العام بعد الخواص.

وبعد هذا التحذير من التلقي من أهل الكتاب، وطاعتهم واتباعهم.. لو تدبرنا هذا النداء الثاني في سورتي البقرة وآل عمران نجد ترابطًا وثيقًا بين النداءين، ففي سورة البقرة: أمر بالصبر والصلاة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ [البقرة: ١٥٣].

وفي سورة آل عمران: أمر بالتقوى وما يتصل بها من أعمال، والجامع بينهما: النجاة. وهذا دليل من أدلة إعجاز القرآن الكريم، وأنه من عند الله، فهو مترابط ومنظوم كحبات اللؤلؤ.

معاني المفردات والتراكيب :

﴿حَقَّ تُقَاتِهِ﴾: كما قال ابن مسعود رضي الله عنه وهو أن يطاع فلا يعصى، ويذكر فلا ينسى، ويشكر فلا يكفر.

الاعتصام: هو التعلق بدين الله - تعالى-.

﴿فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾ أي: جمعها على المحبة وأخوة الدين.

﴿ شَفَا حُفْرَةٍ ﴾ : على حافة الهلاك والوعيد.

﴿ أُمَّةٌ ﴾ أي: جماعة أو طائفة.

﴿ الْمُفْلِحُونَ ﴾ أي: الفائزون بما وعدوا، والناجون مما منه هربوا [١].

﴿ كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا ﴾ : هم أهل الكتابين السابقين.

من لطائف القرآن الكريم :

الأولى: في قوله - تعالى -: ﴿ ولا تَمُوتُنَّ إلاَّ وأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ تعارض ظاهر؛ لأن النهي لا يتوجه للإنسان عن مباشرة الموت، فهو أمر لا يملكه، وعلي هذا فالمعنى: داوموا على الإسلام قولاً وعملاً حتى تلقوا ربكم عز وجل على الدين الحق.

الثانية: عبر عن التمسك بالدين بالاعتصام بالحبل القوي لما بينهما من وجه شبه وهو عدم الضياع أو الهلاك في كل.

الثالثة: يفهم من قوله - تعالى -: ﴿ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا ﴾ أن قدرة الله عز وجل لا حدود لها حيث صيرهم إخوة متحابين بعد أن كانوا أعداء متباغضين.

الرابعة: يفهم من قوله - تعالى -: ﴿ وكُنتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ﴾ سرعة انقضاء الدنيا، وأن ما بقي من أعمارهم لا يساوي شيئًا بالنسبة للآخرة.. فقد كانوا على حافة النار لو ماتوا على الكفر، ولكن الله سبحانه هداهم للإيمان وعمَّر قلوبَهم بالمحبة والإحسان.

الخامسة: أن قوله - تعالى -: ﴿ ولْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ... ﴾ تأكيد على أن المعروف يقابل بمثله.. فكما أن النبي ﷺ أمرهم بالمعروف ونَهاهم عن المنكر فهداهم الله جل وعلا إلى الصراط المستقيم فكذلك ينبغي أن يكون المؤمنون سببًا في هداية غيرهم عن طريق الدعوة إلى الله - تعالى -.

السادسة: قوله - تعالى -: ﴿ ولا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا واخْتَلَفُوا... ﴾ فيه إشارة إلى أن الذين تفرقوا كانوا يأمرون بالمعروف ولا يأتمرون به،

---

(١) راجع المواد اللغوية لهذه الكلمات في لسان العرب.

وينهون عن المنكر ولا ينتهون عنه فحل بهم ما حل من غضب الله ولعنه ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [فصلت: ٤٦].

الأحكام الفقهية :

الحكم الأول: وجوب التقوى :

أمر الله عباده بأن يتقوه في كثير من آيات التنْزيل، لذا كان التحلي بهذه الصفة العظيمة من واجبات هذا الدين الحق على متبعيه والمؤمنين به؛ لأنها تأخذ بأيديهم إلى طريق الخير ما استطاعوا، وتحول بينهم وبين جميع المعاصي والمخالفات.

الحكم الثاني: وجوب الاحتكام إلى شرع الله :

يجب على المؤمنين أن يلوذوا إلى الشرع الإسلامي في كل ما يقابلهم في هذه الحياة في الحب والبغض، في السلم والقتال، في المنشط والمكره.. في كل ما يعملون أو يذرون، والشرع الإسلامي يقوم على دعامتين أساسيين هما: كتاب الله - تعالى- وسنة خاتم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

الحكم الثالث: ذكر النعم :

والمراد بذكر النعم هو: شكرها، والقيام بواجبها نحو خالقها وواهبها، وبهذا تبقى وتزداد.. قال الله - تعالى-: ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ [إبراهيم: ٧] ، أما مجرد ذكرها باللسان ، مع بلادة الجوارح فلا يعد شاكرًا لها ، لذا قال الله - تعالى-: ﴿ .. اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾ [سبأ: ١٣].

الحكم الرابع: غفران الذنوب بالإسلام والتوبة :

من فضل الله عز وجل ورحمته بخلقه: أن من شرح صدره للإسلام ، فإن ذنوبه تُهدم، وسيئاته تكفر، نلمس ذلك في قوله - تعالى -: ﴿ ... إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا... ﴾ ، وفي حديث عمرو بن العاص رضي الله عنه حينما أراد أن يشترط غفران الذنوب قبل أن يسلم فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : ((... **أما علمت أن الإسلام**

يهدم ما قبله؟! وأن التوبة تجب ما قبلها...))[١].

الحكم الخامس: في وجوب الدعوة:

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من الفروض الكفائية على هذه الأمة ، فإن قام بها البعض سقط الإثم والوجوب عن الباقين ، وإذا لم يقم بها أحد أثم الجميع.. ((**لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليسلطن الله عدوًّا فلا يرحم صغيركم ولا يجل كبيركم ثم تدعونه فلا يستجاب لكم**))[٢]، وفي التنزيل: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (٧٨) كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة: ٧٨- ٧٩]. وفي الحديث: ((**الدين النصيحة ، قلنا: لمن يا رسول الله ؟ قال: لله ، ولكتابه ، ولرسوله ، ولأئمة المسلمين وعامتهم**))[٣].

الحكم السادس: حرمة الفرقة والتشبه بأهل الكتاب:

آخى الإسلام بين أتباعه فجعلهم إخوة متحابين ، ﴿فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ بل جعلهم كالجسد الواحد تعاطفًا وتراحمًا ((**مثل المؤمنين في توادهم وتعاطفهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى**))[٤].

وحرم عليهم كل ما يصل بهم إلى الفرقة من بغضاء وكراهية وحسد ونحو ذلك، كما حرم عليهم أن ينهجوا نَهج اليهود والنصارى في تفرقهم وفي أخلاقهم الذميمة.

قال رسول الله ﷺ: ((**لتتبعن سنن من قبلكم شبرًا بشبر وذراعًا بذراع حتى لو سلكوا حجر ضب لسلكتموه وراءهم. قلنا: اليهود والنصارى يا رسول الله؟ قال:**

---

(١) رواه مسلم، كتاب: الإيمان، باب: كون الإسلام يهدم ما قبله، حديث (١٢١)، وابن خزيمة في صحيحه (١٢١/٤) حديث (٢٥١٥)، والبيهقي في الكبرى (٩٨/٩) .

(٢) تفسير القرآن العظيم ٣٠٢/٢.

(٣) رواه مسلم، كتاب: الإيمان، باب: بيان أن الدين النصيحة، حديث (٥٥)، وأبو داود، حديث (٤٩٤٤)، والترمذي، حديث (١٩٢٦)، والنسائي، حديث (٤١٩٧)، وأحمد في مسنده (١٠٢/٤) .

(٤) سبق ترجمته.

فمن؟»[1].

المعنى العام :

هذا أمر من الله لعباده المؤمنين أن يتقوه حق تقواه، وأن يستمروا على ذلك ويثبتوا عليه ويستقيموا إلى الممات، فإن من عاش على شيء مات عليه. فمن كان في حال صحته ونشاطه وإمكانه مداومًا على تقوى ربه وطاعته ، منيبًا إليه على الدوام، ثبته الله عند موته ، ورزقه حسن الخاتمة ، وتقوى الله حق تقاته كما قال ابن مسعود رضي الله عنه وهو أن يطاع فلا يعصى، ويذكر فلا ينسى ، ويشكر فلا يكفر، وهذه الآية بيان لما يستحقه تعالى من التقوى ، وأما ما يجب على العبد منها، فكما قال - تعالى -: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]. وتفاصيل التقوى، المتعلقة بالقلب والجوارح كثيرة جدًّا يجمعها: فعل ما أمر الله به- ما استطاع المرء- وترك كل ما نهى الله عنه.

ثم أمرهم تعالى بما يعينهم على التقوى، وهو الاجتماع والاعتصام بدين الله وكون دعوى المؤمنين واحدة ، مؤتلفين غير مختلفين ، فإن اجتماع المسلمين على دينهم وائتلاف قلوبهم: يصلح دينهم وتصلح دنياهم. وبالاجتماع يتمكنون من كل أمر من الأمور، ويحصل لهم من المصالح التي تتوقف على الائتلاف مالا يمكن عدها من التعاون على البر والتقوى ، كما أن بالافتراق والتعادي يختل نظامهم وتنقطع روابطهم ويصير كل واحد يعمل ويسعى في شهوة نفسه ولو أدى إلى الضرر العام.

ثم ذكرهم - تعالى - نعمته، وأمرهم بذكرها فقال: ﴿واذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ يقتل بعضكم بعضًا ، ويأخذ بعضكم مال بعض، حتى إن القبيلة يعادي بعضهم بعضًا ، وأهل البلد الواحد يقع بينهم التعادي والاقتتال، وكانوا في شر عظيم، وهذه حالة العرب قبل بعثة النبي ﷺ فلما بعثه الله وآمنوا به، واجتمعوا على الإسلام، وتآلفت

---

[1] رواه البخاري، كتاب: أحاديث الأنبياء، باب: ما ذكر عن بني إسرائيل، حديث (٣٤٥٦)، ومسلم، كتاب: العلم، باب: إتباع سنن اليهود والنصارى، حديث (٢٦٦٩)، وابن ماجه، حديث (٣٩٩٤)، وأحمد في مسنده (٢/٣٢٧) حديث (٨٣٢٢).

قلوبُهم على الإيمان؛ كانوا كالشخص الواحد؛ من تآلف قلوبهم، ومولاة بعضهم لبعض، ولهذا قال: ﴿فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ﴾ أي: قد استحققتم النار ولم يبق بينكم وبينها إلا أن تموتوا فتدخلوها ﴿فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾ بما مَنَّ عليكم من الإيمان بمحمد ﷺ.

وقد امتنّ عليهم رسول الله ﷺ يوم قسم غنائم حنين؛ فعتب عليه من عتب منهم بما فضل عليهم في القسمة بما أراد الله؛ فخطبهم وقال: «**يا معشر الأنصار، ألم أجدكم ضُلالاً فهداكم الله بي ؟!! وكنتم متفرقين فألفكم الله بي ؟!! وعالة فأغناكم الله بي ؟!!**» فكلما قال شيئًا قالوا: الله ورسوله أمَنّ [١].

﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ﴾ أي: يوضحها ويفسرها، ويبين لكم الحق من الباطل، والهدى من الضلال ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ بمعرفة الحق والعمل به.

وفي هذه الآية ما يدل على أن الله يحب من عباده أن يذكروا نعمته بقلوبهم وألسنتهم؛ ليزدادوا شكرًا له ومحبة؛ وليزيدهم من فضله وإحسانه، وإن من أعظم ما يذكر من نعمة: نعمة الهداية إلى الإسلام، واتباع الرسول ﷺ واجتماع كلمة المسلمين وعدم تفرقها.

﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ﴾ أيها المؤمنون الذين مَنَّ الله عليهم بالإيمان والاعتصام بحبله ﴿أُمَّةٌ﴾ أي: جماعة ﴿يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ﴾ وهو اسم جامع لكل ما يقرب إلى الله، ويبعد من سخطه ﴿وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ وهو ما عُرف بالشرع والعقل كونه معروفًا، وهذا إرشاد من الله للمؤمنين أن يكون منهم جماعة متصدية للدعوة إلى سبيله، وإرشاد الخلق إلى دينه. ويدخل في ذلك العلماء المعلمون للدين، والوعاظ الذين يدعون أهل الأديان إلى الدخول في دين الإسلام، ويدعون المنحرفين إلى الاستقامة، والمجاهدون في سبيل الله، والمتصدون لتفقد أحوال الناس وإلزامهم بالشرع كالصلوات الخمس والزكاة والصوم والحج وغير ذلك من شرائع

---

(١) حديث صحيح متفق عليه. وانظر تفسير ابن كثير (٨٥/٢، ٣٤٢/٣).

الإسلام ، وكتفقد المكاييل والموازين وتفقد أهل الأسواق، ومنعهم من الغش والمعاملات الباطلة ، وكل هذه الأمور من فروض الكفايات كما تدل عليه الآية الكريمة في قوله: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ . . . . . . ﴾ إلخ.

أي: لتكن منكم جماعة يحصل المقصود بهم في هذه الأشياء المذكورة، ومن المعلوم المتقرر: أن الأمر بالشيء أمر به وبما لا يتم إلا به فكل ما تتوقف هذه الأشياء عليه فهو مأمور به ، كالاستعداد للجهاد بأنواع العدد التي يحصل بها نكاية الأعداء وعز الإسلام ، وتعلم العلم الذي يحصل به الدعوة إلى الخير: وسائلها ومقاصدها، وبناء المدارس للإرشاد والعلم ، ومساعدة النواب ومعاونتهم على تنفيذ الشرع في الناس بالقول والفعل والمال ، وغير ذلك مما توقف هذه الأمور عليه، وهذه الطائفة المستعدة للدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هم خواص المؤمنين.

عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : ((**من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان**))[(١)].

وقوله ﷺ : ((**والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقابًا من عنده ، ثم لتدعنه فلا يستجاب لكم**))[(٢)].

وقال ﷺ : ((**من أمر بالمعروف ، ونهى عن المنكر، فهو خليفة الله في أرضه ، وخليفة رسوله ، وخليفة أوليائه ، وخليفة كتابه**))[(٣)].

---

(١) رواه مسلم، كتاب: الإيمان، باب: بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان، حديث (٤٩)، وأبو داود، حديث (١١٤٠)، والنسائي، حديث (٥٠٠٨)، وابن ماجه، حديث (١٢٧٥)، وأحمد في مسنده (١٠/٣)، حديث (١١٠٨٨).

(٢) حسن: رواه الترمذي، كتاب: الفتن، باب: ما جاء في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حديث (٢١٦٩)، وأحمد في مسنده (٣٨٨/٥) حديث (٢٣٣٤٩). وحسنه الألباني في صحيح الترمذي.

(٣) ضعيف : رواه نعيم بن حماد في الفتن (١٠٢/١)، حديث (٢٤٥)، والديلمي في الفردوس (٥٨٦/٢) حديث (٥٨٣٤). وانظر زخيرة الحفاظ لأبي الفضل القيسراني (٥١٧٣).

وجماعة الدعوة هم الذين قال الله فيهم: ﴿وأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ الفائزون بالمطلوب ، الناجون من المرهوب. ثم نَهاهم عن التشبه بأهل الكتاب في تفرقهم واختلافهم فقال: ﴿ولا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا واخْتَلَفُوا﴾ ومن العجائب والغرائب أن اختلافهم ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ البَيِّنَاتُ﴾ الموجبة لعدم التفرق والاختلاف ، فهم أولى من غيرهم بالاعتصام بالدين ، فعكسوا القضية مع علمهم بمخالفتهم أمر الله ، فاستحقوا العقاب الأليم ، ولهذا قال عز وجل: ﴿وأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [1].

ما ترشد إليه الآيات الكريمة :

١- أن التقوى هي الأساس الذي يبنى عليه الإيمان الحق.

٢- أن الوفاة على الإسلام من أهم النعم التي ينعم الله بها على الإنسان.

٣- أن الاعتصام بدين الله - تعالى- يحمي الإنسان من جميع الفتن.

٤- أن كل شيء بإرادة الله - تعالى- وقضائه وقدره.

٥- أن الدعوة إلى الله - تعالى- [الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر] من واجبات هذه الأمة.

٦ - ترك الدعوة يبعد عن رحمة الله - تعالى-.

٧ - أن التفرق والاختلاف من موروثات أهل الكتاب، ومن نَهج نَهجه يناله الوعيد وهو العذاب العظيم.

* * *

(١) تيسير الكريم الرحمن ١٤١، ١٤٢.

بطانة السوء والتحذير منها
النداء الثالث

يقول الله - تعالى -:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ (١١٨) هَا أَنتُمْ أُوْلاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١١٩) إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [آل عمران: ١١٨- ١٢٠].

مناسبة الآيات لما قبلها :

بعد أن بين الحق عَزَّ وَجَلَّ أن الكفار ﴿لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ [آل عمران: ١١٦] من الإغناء ، لا في جلب ثواب ولا في دفع عقاب ، بل هي وبال عليهم في الدنيا والآخرة؛ لأنهم صرفوها في سبيل الصد عن دين الله - تعالى -.

نهى الله عَزَّ وَجَلَّ المؤمنين أن يتخذوا بطانة من هؤلاء المنافقين والكافرين يظهرونهم على بعض أسرارهم أو يولونهم بعض الأعمال الإسلامية؛ لأنهم الأعداء الحقيقيون ولا أمان لهم.

معاني المفردات والتراكيب :

﴿لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً﴾ : بطانة الرجل: خصيصته وصفيه، شبه ببطانة الثوب ، كما يقال: فلان شعاري ، وفي الحديث: «**الأنصار شعار والناس دثار**»[1].

وقال ابن أبي حاتم: قيل لعمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إن هاهنا غلامًا من

---

(١) جزء من حديث رواه البخاري، كتاب: المغازي، باب: غزوة الطائف في شوال سنة ثمان، حديث (٤٣٣٠)، ومسلم، كتاب: الزكاة، باب: إعطاء المؤلفة قلوبهم على الإسلام، حديث (١٠٦١)، وابن ماجه، حديث (١٦٤)، وأحمد في مسنده (٤٢/٤) .

أهل الحيرة حافظ كاتب ، فلو اتخذته كاتبًا ؟! فقال: قد اتخذت إذًا بطانة من دون المؤمنين !!!

﴿ مِّن دُونِكُمْ ﴾ أي: من غير المؤمنين.

﴿ لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً ﴾ أي: تمنوا أن يوقعوكم في المشقة والضرر في دينكم.

﴿ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ ﴾ أي: ظهرت من أفواههم مهما حاولوا إخفاءها.

﴿ وإِذَا خَلَوْا عَضُّوا ﴾ : إذا ابتعد المنافقون عن المؤمنين عضوا أناملهم من شدة غيظهم عليكم الأنامل من حقدهم على المسلمين[١].

من لطائف القرآن الكريم :

الأولى: في قوله - تعالى -: ﴿ لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ... ﴾ إشارة إلى مبدأ الولاء والبراء في الإسلام.. وأن موالاة غير المؤمنين لا تأتي بخير ، كما في الحديث: «**المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل**»[٢].

الثانية: كلمة ﴿ خَبَالاً ﴾ نكرة تفيد التعظيم ، والواقع المر يؤكد ذلك، فأعداؤنا كلما فرغوا من مكيدة لإفساد الدين والحرث والنسل، شرعوا في غيرها ، وصدق الحق حيث قال: ﴿ولَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ ولا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾ [البقرة:١٢٠].

الثالثة: في قوله - تعالى -: ﴿ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ حض وترغيب في إعادة النظر في الأمور خاصة فيما يتعلق بغير المؤمنين ، حتى لا نكون غرضًا لأعداء الحق والخلق يسددون إلينا طعناتِهم وسهامهم.

الرابعة: في قوله - تعالى -: ﴿ وتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ ﴾ : إشارة إلى أن الإيمان كل لا يتجزأ ، فمن آمن بجميع الكتب والرسل عليهم الصلاة والسلام نجا ، ومن آمن بالبعض وكفر بالبعض هلك.. قال الله - تعالى-

---

(١) راجع المواد اللغوية لهذه الكلمات في لسان العرب .

(٢) حسن: رواه أبو داود، كتاب: الأدب، باب: من يؤمر أن يجالس، حديث (٤٨٣٣)، والترمذي، حديث (٢٣٧٨)، وأحمد في مسنده (٣٣٤/٢) حديث (٨٣٩٨)، والحاكم في المستدرك (١٨٨/٤) حديث (٧٣١٩). وحسنه الألباني في صحيح الترمذي .

obeikandl.com

موبخًا أهل الضلال: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٨٥].

الخامسة: الله ﷻ يخبرنا عن علم محيط ، لذا فإن أخباره صادقة وجب أن نمتثل لها. وقد أشار إلى ذلك بقوله- سبحانه-: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾.

السادسة: كلمة ﴿شَيْئًا﴾ نكرة ، تفيد التقليل ، ومعنى هذا أن المنافقين مهما فعلوا فلن يضروا المؤمنين شيئا من الضرر ولو كان قليلاً ، والله مطلع على أعمال العباد ، وسيجازيهم جزاءً وفاقًا.

الأحكام الفقهية :

الأول: حكم الاستعانة بغير المسلمين :

لفقهائنا في هذه المسألة قولان :

١- ذهب المالكية ومن وافقهم إلى عدم جواز الاستعانة بغير المسلمين في الحرب أو في غيرها بظاهر قوله - تعالى -: ﴿لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ...﴾ [آل عمران: ٢٨] ، وبقوله - تعالى -: ﴿لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ﴾. وقد روي أن قومًا من المؤمنين كان لهم أصحاب من اليهود ، كانوا يوالونهم فقال لهم بعض الصحابة: اجتنبوا هؤلاء اليهود واحذروا مصاحبتهم لئلا يفتنوكم عن دينكم ويضلوكم بعد إيمانكم فأبى أولئك النصيحة، وبقوا على صداقتهم ومصاحبتهم لهم فنَزلت الآية الكريمة: ﴿لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ...﴾ [آل عمران: ٢٨].

وذكر القرطبي في تفسيره عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أن عبادة بن الصامت الأنصاري البدري ، كان له حلفاء من اليهود، فلما خرج النبي ﷺ يوم الأحزاب قال له عبادة: يا نبي الله ، إن معي خمسمائة من اليهود ، وقد رأيت أن يخرجوا معي فأستظهر بهم على العدو، فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الآية.

واستدلوا كذلك بما روته أم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها - أن رجلاً من المشركين كان ذا جرأة ونجدة جاء إلى النبي ﷺ يوم بدر يستأذنه في أن يحارب معه ، فقال ﷺ : **((ارجع فلن أستعين بمشرك))** [(١)].

٢- وذهب الجمهور **(الأحناف والشافعية والحنابلة)** إلى جواز الاستعانة بالكفار في الحرب بشرطين: الأول: الحاجة إليهم. والثاني: الوثوق من جهتهم [(٢)].

واستدلوا على مذهبهم بفعل النبي ﷺ فقد استعان بيهود بني قينقاع وقسم لهم ، واستعان بصفوان بن أمية في هوازن فدل ذلك على الجواز.

وأجابوا عن أدلة المالكية **(ومن وافقهم)** بأنها منسوخة بفعله ﷺ وعمله.

وقال بعضهم: إن ما ذكره المالكية يحمل على عدم الحاجة أو عدم الوثوق، حيث إن النبي ﷺ لم يثق من جهته ، وبذلك يحصل الجمع بين أدلة المانعين والمجيزين.

الحكم الثاني: في التقية :

قال ابن عباس - رضي الله عنهما-: التقية أن يتكلم بلسانه وقلبه مطمئن بالإيمان، ولا يقتل ولا يأتي مأثمًا. وعرف بعضهم التقية بأنها: المحافظة على النفس والمال من شر الأعداء فيتقيهم الإنسان بإظهار الموالاة من غير اعتقاد لها.

---

(١) رواه مسلم، كتاب: الجهاد والسير، باب: كراهة الاستعانة في الغزو بكافر، حديث (١٨١٧)، وأبو داود، حديث (٢٧٣٢)، والترمذي، حديث (١٥٥٨)، وابن ماجه، حديث (٢٨٣٢).

(٢) هذان الشرطان كان من الممكن تطبيقهما في عهد النبي ﷺ وفي القرون الثلاثة المفضلة، أما في هذه العصور.. فلا حاجة إليهم ؛ لأن جميع الإمكانات متوفرة لدى المسلمين إلا أنهم غثاء كغثاء السيل، وأكثرهم يعبد الكفار من دون الله - تعالى-. ولا ثقة فيهم ولا في وعودهم، وقد لدغ المسلمون كثيرًا منهم، ولكنهم موتى: ﴿ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ ﴾.
وقال الشاعر:

من يهن يسهل الهوان عليه ... ما لجرح بميت إيلام

انظر تفسير آيات الأحكام (٢/٧).

وقال الجصاص في أحكام القرآن: وقد اقتضت الآية جواز إظهار الكفر عند التقية، وهو نظير قوله - تعالى -: ﴿مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ﴾ [النحل: ١٠٦] وإعطاء التقية في مثل ذلك إنما هو رخصة من الله - تعالى- وليس بواجب، بل ترك التقية أفضل. قال أصحابنا فيمن أكره على الكفر فلم يفعل حتى قتل: إنه أفضل ممن أظهر، وقد أخذ المشركون (خبيب بن عدي) فلم يعط التقية حتى قتل، فكان عند المسلمين أفضل من (عمار بن ياسر) حين أعطى التقية وأظهر الكفر، فسأل النبي ﷺ عن ذلك فقال: كيف وجدت قلبك؟ قال: مطمئنًا بالإيمان، فقال ﷺ: «**إن عادوا فعد**»[١].

وقد روي أن مسيلمة الكذاب أخذ رجلين من أصحاب النبي ﷺ فقال لأحدهما: أتشهد أن محمدًا رسول الله؟ قال: نعم، قال: أتشهد أني رسول الله؟ قال: نعم، فخلى سبيله، ثم دعا بالآخر، وقال: أتشهد أن محمدًا رسول الله، قال: نعم، قال: أتشهد أني رسول الله؟ قال: إني أصم، قالها ثلاثًا، فضرب عنقه، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: «**أما هذا المقتول فقد مضى على صدقه ويقينه، وأخذ بفضيلة فهنيئًا له، وأما الآخر فقبل رخصة الله فلا تبعة عليه**»[٢].

الحكم الثالث: في استعمال الكافرين في شئون المسلمين:

ذهب بعض العلماء إلى أنه لا يجوز تولية الكافر شيئًا من أمور المسلمين، ولا جعلهم عمالاً ولا خدمًا، كما لا يجوز تعظيمهم وتوقيرهم في المجلس، والقيام عند قدومهم، فإن دلالته على التعظيم واضحة، وقد أمرنا باحتقارهم ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ [التوبة: ٢٨].

قال القاضي ابن العربي: وقد نَهى عمرُ بن الخطاب أبا موسى الأشعري - رضي الله عنهما - بذمي كان استكتبه باليمن وأمره بعزله[٣].

وقال الجصاص: وفي هذه الآية ونظائرها دلالة على أن لا ولاية للكافر على المسلم في شيء، وأنه إذا كان للكافر ابن صغير مسلم

---

(١) أحكام القرآن للجصاص ١١/٢، وتفسير آيات الأحكام للسايس ٨/٢.

(٢) روائع البيان ٤٠٣/١، وتفسير آيات الأحكام ٨/٢.

(٣) أحكام القرآن لابن العربي، وانظر: روائع البيان (٣٧٧/١).

بإسلام أمه، فلا ولاية له عليه في تصرف ولا تزويج ولا غيره. ويدل على ذلك أن الذمي لا يعقل جناية المسلم، وكذلك المسلم لا يعقل جنايته؛ لأن ذلك من الولاية والنصرة والمعونة [١]. ومما يؤيد هذا الرأي ويرجحه قوله - تعالى -: ﴿ولَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً﴾ [النساء: ١٤١].

الحكم الرابع: حكم المداراة للفجار :

أجاز بعض العلماء مداراة أهل الشر والفساد، ولا تدخل المداراة في الموالاة المحرمة فقد كان ﷺ يداري الفساق والفجار ويقول: «**إنا لنبش في وجوه قوم وقلوبنا تلعنهم**». ويشترط في المداراة ألا تؤدي إلى ضرر الغير، كما أنها لا تخالف أصول الشرع، فذلك جائز، وإن كانت تؤدي إلى ضرر الغير، كالقتل والسرقة، وشهادة الزور فمحرمة، والله الهادي إلى سواء السبيل [٢].

الحكم الخامس: في مواجهة المجرمين بجرمهم :

إذا لم تثمر سبل الدعوة في المجرمين، فإنه يجوز للمؤمنين أن يواجهوهم بجرمهم حتى لا يتمادوا في خداعهم وتبجحهم: ﴿قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ﴾ بشرط ألا يترتب على ذلك مفسدة، فإن خيف وقوع المفسدة جازت المداراة.

الحكم السادس: في كمال الإيمان :

لا يكمل إيمان المؤمن حتى يوقن أن ما أخطأه لم يكن ليصيبه، وما أصابه لم يكن ليخطئه، وأن الخير والشر مردهما إلى الله - تعالى- ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلاَنَا وعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: ٥١].

المعنى العام للآيات :

ينهى الله عباده المؤمنين عن اتخاذ بطانة من أعدائهم حتى لا يطلعوا على أسرارهم بل الواجب أن تكون بطانتهم من المؤمنين [٣]، فإن الأعداء

---

(١) أحكام القرآن للجصاص (٢/١١-١٣).

(٢) تفسير آيات الأحكام للسايس (٢/٨)، روائع البيان (١/٤٠٤).

(٣) لأن من اتخذ بطانة من غير المؤمنين قد انكشفت عداوته بكل وقاحة، والواقع المخزي في بلاد المسلمين الذي لا يحزن عدوًا ولا يفرح حبيبًا، أكبر دليل على صدق القرآن الكريم: ﴿.. لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ..﴾، ويا ليت المسلمين يتيقظون من رقدتهم التي زادت عن مدة أصحاب الكهف!!!

لا يدخرون جهدًا في محاولات إفساد الدين الإسلامي، كما أنهم يتمنون أن يضروا المؤمنين أبلغ الضرر ومن أكبر الأدلة على عداوتهم ، ما يتلفظون به من أمارات البغض والحقد الدفين، ولا يستطيعون أن يملكوا أنفسهم فيمنعوها من التفوه بهذه العبارات التي يعلم منها بغضهم للمسلمين ، والنفوس مجبولة على النطق بما في ضميرها، فمهما حاولوا التستر ظهر ذلك على ألسنتهم لخبث قلوبهم وسرائرهم ، وما تخفي صدورهم من البغض لكم أكبر مما بدا وظهر.

قد بينا لكم الآيات[١] الدالة على وجوب الإخلاص في الدين، وموالاة أولياء الله[٢]، ومعاداة أعداء الله[٣] إن كنتم تعقلون ما بين لكم بالتفكر والتدبر فتفرقون بين الصديق والعدو، فليس كل أحد يصلح بطانة، وإنما العاقل من إذا ابتلي بمخالطه العدو أن تكون مخالطة في ظاهره، ولا يطلعه من باطنه على شيء ولو تملق له، وأقسم أنه من أوليائه.. قال الله مهيجًا للمؤمنين على الحذر من هؤلاء المنافقين من أهل الكتاب ومبينًا عداوتهم الشديدة :

﴿ هَا أَنتُمْ أُوْلاءِ تُحِبُّونَهُمْ ﴾ أنتم أيها المؤمنون تحبونهم بما يظهرون لكم من الإيمان وتحبونهم لذلك، ﴿ولا يُحِبُّونَكُمْ﴾ لا ظاهرًا ولا باطنًا ﴿ وتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ﴾ أي بجميع الكتب المنزلة، وهم يكفرون بكتابكم، فأنتم أحق بالبغضاء لهم منهم لكم.

﴿ وإِذَا لَقُوكُمْ﴾ معشر المؤمنين ﴿ قَالُوا آمَنَّا﴾ نفاقًا، وذلك أنكم

---

(١) **الآيات**: جمع آية، وهي الشيء العجيب، وهي ما تكون قرآنية، وإما أن تكون كونية، فالقرآنية كأغلب آيات القرآن، والكونية كقوله - تعالى -: ﴿ومِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ والنَّهَارُ والشَّمْسُ والْقَمَرُ لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ ولا لِلْقَمَرِ واسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾[فصلت: ٣٧]، فالآيات القرآنية تعطي المنهج، والآيات الكونية تؤيد صدق الآيات المنهجية.

(٢) الدليل على موالاة أولياء الله - تعالى- قوله: ﴿ ومَن يَتَوَلَّ اللَّهَ ورَسُولَهُ والَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الغَالِبُونَ ﴾ [المائدة: ٥٦].

(٣) والدليل على معاداة أعداء الله - تعالى- قوله: ﴿ ومَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي القَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [المائدة: ٥١] .

كنتم أقوياء في دينكم فكانوا يخشون بأسكم إذا ما صارحوكم ببغضهم لكم.

﴿ وإِذَا خَلَوْا ﴾ أي: خلا بعضهم ببعض بعيدًا عنكم ﴿ عَضُّوا عَلَيْكُمُ ﴾ أناملهم من شدة الغيظ لعلو كلمتكم وشأنكم، وانتقاص أمرهم ﴿ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ ﴾ دعاء عليكم بدوام غيظهم إلى الموت، فاعلموا أن الله متم نعمته على المؤمنين، ومكمل دينه ومظهره، ومعلٍ كلمته.. فموتوا كمدًا وغيظًا. وهذا فيه بشارة للمؤمنين أن هؤلاء الذين قصدوا ضرركم لا يضرون إلا أنفسهم، وأن غيظهم لا يقدرون على تنفيذه، بل لا يزالون معذبين به حتى يموتوا فينتقلوا من عذاب الدنيا إلى عذاب الآخرة.

﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ أي: هو أعلم بما تنطوي عليه ضمائركم من البغضاء والحسد والغل للمؤمنين ، وهو مجازيكم عليه في الدارين.

﴿ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ ﴾ كالنصر على الأعداء، وحصول الفتح والغنائم ﴿ تَسُؤْهُمْ ﴾ أي: تغمهم وتحزنهم ﴿ وإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ ﴾ من ابتلاء أو هزيمة ﴿ يَفْرَحُوا بِهَا ﴾ وفي هذا بيان لتناهي عداوتهم إلى حد الحسد [(١)] بما نالهم من خير ومنفعة، وشمتوا بما أصابهم من ضر وشدة لما لله تعالى من الحكمة البالغة كما جرى للمؤمنين يوم أحد ففرح المنافقون بذلك، وذلك ما جبل عليه كل عدو.

وهاهو كتاب الله يعلمنا، ومع ذلك نعود، فنفتح لهم قلوبنا، ونتخذ منهم رفقاء في الحياة، وتبلغ بنا المجاملة أن نجاملهم في عقيدتنا، فنتحاشى عن ذكرها... وفي منهج حياتنا فلا نقيمه على منهج الإسلام، فنتقي فيه ذكر أي صدام كان بين أسلافنا وهؤلاء الأعداء المتربصين.

---

(١) من قابل السيئة بمثلها فلا إثم عليه، ولكن الأفضل أن نقابلها بالحسنى ؛ لقول الله - تعالى- : ﴿ وجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾ [الشورى:٤٠]، وقد جاء رجل إلى عبد الله بن مسعود فقال: إن لي جارًا يؤذيني ويشتمني ويضيق عليَّ. فقال له: إننا لا نكافئ من عصى الله فينا بأكثر من أن نطيع الله فيه... هكذا كان المسلمون الأول، جبال إيمان راسخة!!!

obeikandi.com

ومن ثم يحل علينا جزاء المخالفين عن أمر الله، ومن هنا نلقى العنت الذي يوده أعداؤنا لنا، ونذل ونضعف ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [النور: ٦٣].

﴿ وإن تَصْبِرُوا وتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا ﴾ يرشدنا تعالى إلى السلامة من شرهم وكيدهم باستعمال الصبر والتقوى والتوكل عليه سبحانه وتعالى أو الصبر على مشاق التكليف، لا الانهيار والتخاذل، لا التنازل عن العقيدة اتقاءً لشرهم المتوقع أو كسب ودهم.

والتقوى: أي الخوف من الله وحده، ومراقبته وحده. التقوى التي تربط القلوب بالله.. وحين يتصل القلب بالله، فإنه سيحقر كل قوة غير قوته، ولا يواد من حاد الله ورسوله طلبًا للنجاة، فلا يضركم كيدهم بحفظ الله وفضله.

﴿ إنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾: محيط بأعدائهم، فلا حول ولا قوة لهم إلا به، وهو الذي ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، ولا يقع شيء في الوجود إلا بتقديره ومشيئته.

إنه المحيط بكل شيء علمًا، وقدرة، ورحمة، وقهرًا، ومن توكل عليه كفاه.

ما ترشد إليه الآيات الكريمة:

١- موالاة الكافرين ومحبتهم، والتودد إليهم محرم في دين الله الحق.

٢- لا مانع من التقية عند الخوف على النفس أو المال، أو التعرض للأذى الشديد.

٣- الإكراه يبيح للإنسان التلفظ بكلمة الكفر بشرط أن يبقي القلب مطمئنًا بالإيمان.

٤- لا صلة بين المؤمن والكافر بولاية، أو نصرة، أو توارث، لأن الإيمان يناقض الكفر.

٥- الله محيط بكل شيء، وقد أحاط بكل شيء علمًا، ولا تخفى

عليه خافية وسيحاسب عباده وفق أعمالهم.

٦- أعداء الإسلام يكيدون له ، وسيجعل الله كيدهم في نحورهم.

٧- ما انطوت عليه القلوب يظهر على فلتات الألسنة.

٨- الولاء والبراء في الإسلام من أهم قضايا العقيدة.

٩- التمسك بالدين عقيدة ومنهجًا يحمي أصحابه من البوار في الدارين.

* * *

obeikandl.com

القرآن يجدد الوعيد للمرابين
النداء الرابع

يقول الله - تعالى- :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٣٠) وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (١٣١) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٣٢) وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٣) الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤) وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٣٥) أُوْلَئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾

[آل عمران: ١٣٠-١٣٥].

مناسبة الآيات لما قبلها :

يقول فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي - رحمه الله -: الحق - سبحانه وتعالى- يوضح الدروس المستفادة من غزوة أحد.. إن أول مخالفة في عدم النصر؛ لأنهم بدأوا منتصرين ، ولم يتم النصر؛ لأنه قد حدثت مخالفة ، ودوافع هذه المخالفة: أنهم ساعة رأوا الغنائم اندفعوا إليها. إذن فدوافعها: هو طلب المال من غير وجه حق؛ لأن النبي ﷺ قال: «**انضحوا عنا الخيل ، ولا نؤتين من قبلكم، إلزموا أماكنكم إن كانت النوبة لنا أو علينا، وإن رأيتمونا تختطفنا الطير فلا تبرحوا أماكنكم**»[(1)].

فتطلع النفس إلى شيء في غير ما أمر به النبي ﷺ يعتبر أمرًا غير مشروع، والتطلع هنا كان للمال، وهكذا الربا.

فهذه مناسبة في أننا نجد آية الربا هنا وهي توضح الآثار السيئة للطمع في المال الزائد عن طريق غير مشروع.

مثال ذلك في سورة البقرة: يتكلم الحق - سبحانه وتعالى - عن

---

(1) تفسير القرآن العظيم ٢/٩١ ط. الشعب .

الطلاق والوفاة ثم ينزل بينهما آية الصلاة [١] فلماذا؟

ليتضح لنا أن المنهج الإسلامي منهج متكامل ، إياك أن تقول: الطلاق غير الصلاة غير الوفاة..؛ لأن عملية الطلاق تأتي والنفس فيها غضب.. فيقول لهم المنهج: لو كنتم تحسنون الفهم لفزعتم إلى الصلاة؛ لأن النبي ﷺ علمنا أنه إذا حزبه [٢] أمر قام إلى الصلاة.. والآية هي: ﴿ حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴾ [البقرة: ٢٣٨].

وهكذا نجد الآية في مكانها الصحيح [٣] ، وهكذا آية الربا... كي يعرف كل من يريد مالاً زائدًا على غير ما شرع الله: أنه سيأتي منه البلاء على نفسه وعلى غيره، فالبلاء في أُحد شمل الجميع: الرماة وغير الرماة.

إذن فكل الدنيا تتعب عندما تخالف منهج الله، والمال الزائد من غير ما شرع الله، إن لم يترك فقد آذن الله من يأكله بحرب من الله ومن رسوله ﷺ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً ﴾ هذا أول ما نزل في تحريم الربا صراحة: وآيات سورة البقرة في الربا نزلت بعد هذه ، بل هي آخر آيات الأحكام نزولاً.

والمراد بالربا هنا: ربا الجاهلية، فهي صورة من صور الربا.

الربا يطلق على بعض الكبائر :

جاء في حديث أبي يعلى بسند صحيح: «**أتدرون أربى الربا عند الله: استحلال عرض امرئ مسلم**» ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا ﴾ [الأحزاب:٥٨]. فقد أطلق اسم الربا على المعاصي القولية التي لا دخل للمعاملات المالية فيها، كالغيبة والنميمة....إلخ [٤].

---

[١] الآيات من (٢٣٧-٢٤٠) البقرة .

[٢] أي: نزلت به شدة أو ابتلاء شديد.

[٣] وفي هذا دليل على أنه من لدن حكيم خبير: ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا ﴾ .

[٤] هناك وجه شبه بين الربا وهو الزيادة، وبين الغيبة والنميمة مثلاً، إذ أن المعاصي القولية فيها زيادة عن حد الاعتدال وهو المنهج الشرعي .

obeikandl.com

﴿ واتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ في دنياكم بالتراحم والتعاون، والمحبة أس السعادة فالوقاية تكون مما يتعب ويؤلم ويؤذي، أي: اجعلوا بينكم وبين صفات جلاله من جبروت وقهر وانتقام وقاية... وذلك بترك المعاصي جميعها.

﴿ واتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ : لأن النار جند من جنود صفات الجلال.

﴿ واتَّقُوا النَّارَ ﴾ وعيد للمرابين بجعلهم مع الكافرين إذا عملوا عملهم.. وفيه تنبيه إلى أن الربا قريب من الكفر. ومسألة الربا ليست مالية محضة، بل هي دينية، والغرض الديني منها: التراحم المفضي إلى التعاون، فالمقترض اليوم: قد يكون مقترضًا غدًا ، فمن أعان جدير بأن يعان.

﴿ وأَطِيعُوا اللَّهَ والرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ أمر عام بالطاعة لله والرسول ، وفي تعليق الرحمة بهذه الطاعة إشارة إلى وجوبها وأهميتها.

وبعد النهي عن الربا، والتحذير من النار، والدعوة إلى التقوى رجاء رحمة الله والفلاح.. بعد هذا يجيء الأمر بالمسارعة إلى المغفرة.

﴿ وسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وجَنَّةٍ ﴾ أي: اسع إلى المغفرة والجنة سريعًا؛ لأنك لا تعرف كم ستبقى في الدنيا ؟ والمسارعة إلى المغفرة والجنة هي: المبادرة إلى أسبابها ، وما يعد الإنسان لنيلها من التوبة من الإثم؛ كالربا والإقبال على البر كالصدقة.

﴿ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ والأَرْضُ ﴾ : والمراد: المبالغة في وصفها بالسعة.. وخص العرض بالذكر؛ لأنه يكون عادة أقل من الطول.

﴿ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ : هيئت لهم.

ثم وصف المتقين بالصفات الخمس الآتية فقال :﴿ الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ والضَّرَّاءِ ﴾ : بدأ وصف المتقين بالإنفاق لوجهين :

أولهما: مقابلته بالربا الذي نهى الله عنه في الآية السابقة، فإن الربا: استغلال الغني حاجة المعوز ، وأكل ماله بلا مقابل.. والصدقة إعانة له

وإطعامه ما لا يستحقه فهي ضد الربا ، ولم يرد في القرآن ذكر الربا إلا وقبح ، ومدحت معه الزكاة والصدقة كما قال - تعالى - في سورة الروم: ﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلا يَرْبُو عِندَ اللهِ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾ [الروم: ٣٩]. وقال عزّ وجلّ: ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ﴾ [البقرة: ٢٧٦].

ثانيهما: أن الإنفاق في السراء والضراء أشق على النفس، وأدل على التقوى، وأنفع للبشر.

﴿والْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ﴾ : هذه بعض صفات المتقين؛ لأن المعركة معركة أحد، ومن صور المعركة قتل حمزة سيد الشهداء وعم الرسول ﷺ يقتل ويمثل به. وحينما جاء لرسول الله ﷺ خبر مقتل حمزة ، فقد ذكر النبي ﷺ هذه الحادثة مبينًا أنها أفظع ما لقي، فقال: «**لئن أظفرني الله بهم**- أي مشركي مكة - **لأمثلن بثلاثين رجلاً منهم**»[1].

وهنا جاء كظم الغيظ عند رسول الله ﷺ في واحد من أحب البشر إليه.. ينزل قول الحق عزّ وجلّ: ﴿وإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ ولَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ﴾ [النحل: ١٢٦].

فالمؤمن ليس مطبوعًا على الشدة ، ولا على الرحمة ، ولكن الموقف له دخل كبير في عواطف الإنسان، قال - تعالى -: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤].

والغيظ يحتاج إليه المؤمن حينما يهيج دفاعًا عن منهج الله، وفي هذا الشأن ثلاث مراحل :

أولاً: كظم الغيظ.

ثانيًا: العفو.. وهو مرتبة فوق مرتبة الغيظ.

---

(١) ضعيف : رواه الحاكم بنحوه في المستدرك (٢١٨/٣) حديث (٤٨٩٤)، والدارقطني في سننه (١١٦/٤) حديث (٤٢)، والطبراني في الكبير (١٤٣/٣) حديث (٢٩٣٧)، وذكره الهيثمي في المجمع (١٢٠/٦)، وقال: رواه الطبراني، وفيه أحمد بن أيوب بن راشد، وهو ضعيف. وقال الألباني في الضعيفة (٥٤٨ ، ٥٤٩ ، ٥٥٠) : ضعيف .

ثالثًا: أن يتجاوز الإنسان مرحلتي الكظم والعفو بأن يحسن إلى المسيء إليه، وهي ما تسمى بالإحسان.. قال - تعالى -: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾: يروى أن بعض السلف غاظه غلام له فجأة غيظًا شديدًا، فهم بالانتقام منه فقال الغلام: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ﴾. فقال: كظمت غيظي. قال الغلام: ﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾. قال: عفوت عنك. قال: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾. قال: اذهب فأنت حر لوجه الله - تعالى-. فهذه الواقعة بين المراتب الثلاث.

﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أي: إن هؤلاء المتقين إذا صدر منهم ذنب أتبعوه بالتوبة والاستغفار.. ففي الحديث: «**ما من رجل يذنب ذنبًا فيتوضأ ويحسن الوضوء، ثم يصلي ركعتين فيستغفر الله** عز وجل **إلا غفر له**»[1].

إن الإيمان والعمل متلازمان.. وقد جاء عن ابن عباس - رضي الله عنهما-: أنه قال: لا كبيرة مع استغفار، ولا صغيرة مع إصرار[2].

ورب كبيرة أصابها المؤمن بجهالة، وبادر إلى التوبة منها فكانت دائمًا تذكره بضعفه البشري، وطلبًا للكمال بالقرب من الرحمن.. خير من صغيرة يصر المرء عليها فتأنس نفسه بالمعصية، فيتجرأ بعد ذلك على الكبائر فيكون من الهالكين.

ومن الجاهلين من يظن أن الاستغفار باللسان كاف في التوبة، ولنتنبه إلى قول الحق: ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ وعلى الإنسان أن يردف الذنب بقوله: استغفر الله ، وأن يعزم على عدم العود إلى الذنب

---

(١) صحيح: رواه أبو داود، كتاب: الصلاة، باب: في الاستغفار، حديث (١٥٢١)، والترمذي، حديث (٣٠٠٦)، وابن ماجه، حديث (١٣٩٥)، وأحمد في مسنده (٢/١) حديث (٢)، وابن حبان في صحيحه (٢/٣٩٠) حديث (٦٢٣). وصححه الألباني في صحيح أبي داود.

(٢) **ضعيف:** رواه القضاعي في مسند الشهاب (٢/٤٤) حديث (٨٥٣)، والديلمي في مسند الفردوس (٥/١٩٩)حديث (٧٩٩٤) عن ابن عباس. وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٦٣٠٨).

obeikandi.com

أبدًا.

﴿أُوْلَئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ أي: أنواع من المشروبات ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ ماكثين فيها لا موت ولا خروج ﴿وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾. والأجر عادة: هو ما يأخذه العامل على عمله.. وذلك يتوقف على صاحب العمل ونعم هذا الأجر؛ لأنه أجر لا يتناسب مع مجهودك، بل يفوق كل ما بذلت من جهد وقادم منه سبحانه وهو لا يحتاج إلى هذا المجهود.. إنه سبحانه متفضل على خلقه ابتداءً وانتهاءً.

إنك أيها العبد حين تعمل الطاعة يعود أثر الطاعة على نفسك. ومع ذلك، فهو يعطيك أجر ما فعلت.

من لطائف القرآن الكريم :

الأولى: قرن الفلاح بأسلوب الترجي ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾؛ لأن المرء مهما جدَّ في عمل الخيرات فلا يجب على الله سبحانه أن يثيبه.. كأنه قال : اجتهدوا في أعمال البر، وتحاشوا المنهيات راجين أن تكونوا عند الله من المفلحين. وهذا المعنى قريب من قول الله - تعالى-: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاَةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللَّهَ فَعَسَى أُوْلَئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ [التوبة: ١٨].

الثانية: الألف واللام في ﴿وَالرَّسُولِ﴾ للعهد، والمراد به: سيدنا محمد ﷺ فمن آمن به فقد آمن بجميع الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام وبما جاءوا به من عند ربّهم تبارك وتعالى، والعهد هنا: هو العهد الذهني؛ لأنه لم يسبق له ذكر.

الثالثة: التنكير في كلمتي ﴿مَغْفِرَةٌ﴾، ﴿جَنَّةٌ﴾ للتعظيم، وصدق الحق حيث يقول: ﴿فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة:١٧]. ويقول الله - تعالى- في الحديث القدسي: «**أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر**»[١].

---

(١) رواه البخاري، كتاب: تفسير القرآن، باب: قوله - تعالى -: ﴿فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾. حديث (٤٧٧٩)، ومسلم، كتاب: الجنة وصفة نعيمها، حديث (٢٨٢٤)، والترمذي، حديث (٣١٩٧)، وابن ماجه، حديث (٤٣٢٨).

الرابعة: في قوله - تعالى -: ﴿عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ والأَرْضُ﴾ أسلوب قصر، وطريقة التقديم والتأخير؛ لأن أصل الجملة (**السموات والأرض عرضها**) ، وفي هذا إشارة إلى أن سعتها طولاً وعرضًا لا يَعْلمه إلا الله ، وغالبًا ما تأتي كلمة (**السموات**) جمعًا ، و(**الأرض**) مفردة؛ لأن السموات طباق ، منفصل بعضها عن بعض ، أما الأرض فهي متصل بعضها ببعض فكانت بمثابة الأرض الواحدة.. قال الله - تعالى- ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ ومِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢].

الخامسة: في التعبير بصيغة المضارع ﴿يُنفِقُونَ﴾ إشارة إلى أن إنفاقهم في وجوه الخير مستمر متجدد، وبهذا وغيره نالوا ما منحهم الله من درجات القرب، كذلك يفهم من قوله: ﴿واللَّهُ يُحِبُّ المُحْسِنِينَ﴾ أن حب الله لهم مستمر لا ينقطع.

السادسة: في التعبير عن المتقين باسم الموصول كثيرًا ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ..﴾ ، ﴿والَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا...﴾ ، وباسم الإشارة: ﴿أُوْلَئِكَ جَزَاؤُهُم﴾ يفيد المدح والثناء عليهم بما وفقهم الله لفعله.

السابعة: في قوله: ﴿ولَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا..﴾ إشارة إلى أن المتقين المذكورين في النص الكريم لا يصرون على ذنب قط، وإن تكرر منهم ذنب فليس إصرارًا عليه. بل قد يكون سهوًا أو نسيانًا أو خطأ ، وكل ذلك من قبيل الأعذار الشرعية.

الأحكام الفقهية :

الحكم الأول: أن الإيمان عقيدة وقول وعمل، يفهم ذلك من قوله- تعالى-: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً واتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ فحينما صدقوا النبي ﷺ فيما جاء عن ربه عز وجل فهذا الجانب العقدي.. وما جاء به إما أن يكون قولاً أو عملاً.. ويجمع هذا كله سورة العصر:﴿وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر].

الحكم الثاني: أن الله - تعالى- لا يجب عليه شيء، فإذا أثاب

المطيعين فبفضله، وإن عذب المذنبين فبعدله ﴿لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣].

وقال ﷺ: ((**لا يدخل أحدكم الجنة بعمله، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل**))[١].

الحكم الثالث: أن الإيمان متفاوت الدرجات: الإسلام، والإيمان، والإحسان: فالإسلام والإيمان يندرجان تحت صفة التقوى، وأما صفة الإحسان فقد جاء ذكرها نصًّا في قوله - تعالى -: ﴿واللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾. وكل درجة من الثلاث لها ما يناسبها من الأعمال والجزاء.. قال الله - تعالى-: ﴿إنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وإن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا ويُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠].

الحكم الرابع: ظاهر الآيات يُفهم منه أن الاستغفار كافٍ لغفران الذنوب، مع أن الذنوب قسمان: صغائر وكبائر، فالصغائر: يكفرها اجتناب الكبائر ﴿إن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ ونُدْخِلْكُم مُّدْخَلاً كَرِيمًا﴾ [النساء: ٣١].

ويكفرها: الوضوء، والصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان...

وأما الكبائر: فلغفرانها شروط: الندم على فعلها، وعدم العود إلى فعلها، واستخدام النفس في طاعة الله كما استخدمها في معصيته. ورد المظالم إلى أهلها. ومن أراد المزيد في هذا الشأن: فليقرأ كتاب فتح المنعم بشرح صحيح مسلم، وكتاب: الزواجر عن اقتراف الكبائر، وكتاب الترغيب والترهيب للحافظ المنذري.

ما ترشد إليه الآيات الكريمة:

١- شدة وعيد المرابين وما لهم عند الله من أليم العذاب.

٢- اقتران الربا بالكفر دليل على شناعة هذا الذنب العظيم.

---

[١] جزء من حديث رواه البخاري، كتاب: الرقاق، باب: القصد والمداومة على العمل، حديث (٦٤٦٧)، ومسلم، كتاب: صفة القيامة والجنة والنار، باب: لن يدخل أحد الجنة بعمله، حديث (٢٨١٨)، وابن ماجه، حديث (٤٢٠١)، وأحمد في مسنده (٢/٣١٩) حديث (٨٢٣٣).

٣- التقوى أساس جميع الخيرات في الدارين.

٤- الاستغفار من أفضل الأعمال التي تقرب العبد من مولاه.

٥- التوبة النصوح من صفات المتقين.

* * *

obeikandl.com

تثبيت الأقدام على الحق
النداء الخامس

يقول الله - تعالى-:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ (١٤٩) بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ (١٥٠) سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٩-١٥١].

مناسبة الآيات لما قبلها :

لما ذكر الحق عز وجل المؤمنين المجاهدين وبين أن نصرهم وثباتهم كان بسبب توكلهم على الله - تعالى- ولجوئهم إليه - عز شأنه - نهى المؤمنين في هذا النص عن طاعتهم للكافرين واعتزازهم بهم أو ركونهم إليهم... ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [المنافقون: ٨].

معاني المفردات والتراكيب :

﴿ أَعْقَابِكُمْ ﴾ : جمع عقب ، وهو مؤخرة القدم ، ثم استعمل فيمن يغير الجهة التي يسعى إليها ، فبعد أن كان اتجاههم في طريق الإيمان يرجعون إلى طريق الكفر.

﴿ خَاسِرِينَ ﴾ : الخسران هو فوات المقصود شرعًا، ومن ترك طريق الإيمان إلى طريق الكفر فقد خسر خسرانًا مبينًا.

﴿ مَوْلَاكُمْ ﴾ : المولى: مشترك لفظي، فمرة يستعمل اسمًا من أسماء الله الحسنى، كما في هذه الآية ، وأخرى يستعمل بمعنى السيد الشريف في قومه، وثالثة بمعنى العبد الذي صار حرًا ، يقال: زيد بن حارثة مولى رسول الله ﷺ .

﴿ سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ ﴾ : لما انصرف المشركون من وقعة أحد، تشاوروا بينهم وقالوا: كيف ننصرف، بعد أن قتلنا منهم من قتلنا ، وهزمناهم ولما نستأصلهم؟ فهموا بذلك ، فألقى الله الرعب في

قلوبهم ، فانصرفوا خائبين[1].

﴿ سُلْطَانًا ﴾ : حجة قوية وبرهانًا ساطعًا.

﴿ ومَأْوَاهُمُ النَّارُ ﴾ أي: مستقرهم الذي يأوون إليه.

﴿ وبِئْسَ مَثْوَى ﴾ بسبب ظلمهم وعداواتِهم صارت مثواهم.

﴿ الظَّالِمِينَ ﴾ أي : المشركين ، كما قال :﴿ إنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان:١٣].

من لطائف القرآن الكريم:

الأولى: التعبير بإن الشرطية ﴿ إن تُطِيعُوا... ﴾ يفيد الندرة والقلة، وذلك أن الشأن في المؤمنين الفطنة والحذر فقلما تنطلي عليهم حيل الكافرين وخداعهم ، والتعبير بالمضارع يفيد أن المستمرين في موالاتِهم وطاعتهم هم الخاسرون المرتدون ، أما من وقع في شراكهم مرة أو مرتين ثم حسنت توبتهم فلا إثم عليهم.

الثانية: التعبير عن ولاية الله للمؤمنين بالجملة الاسمية ﴿ بَلِ اللَّهُ مَوْلاكُمْ... ﴾ فيه إشارة إلى ثباتِها ودوامها وعدم انقطاعها ﴿ هُوَ الأَوَّلُ والآخِرُ والظَّاهِرُ والْبَاطِنُ وهُوَ بكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [الحديد: ٣].

الثالثة: في قوله - تعالى -: ﴿ سَنُلْقِي فِي قُلُوب الَذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ... ﴾ إخبار ببعض الغيب ، وقد تحقق كما أخبر ، ففيه بعض أدلة الإعجاز القرآني، وأنه من عند الله العزيز الحكيم.

الرابعة: أن الله حكم عدل ، فقد طالبهم بإعمال عقولهم ، وطالبهم بالدليل على جواز شركهم... أما وقد عجزوا عن إقامة الدليل فقد استحقوا ما حل بهم من وعيد ﴿ سَنُلْقِي فِي قُلُوب الَذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا باللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا ومَأْوَاهُمُ النَّارُ وبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ ﴾ .

الأحكام الفقهية :

الأول: طاعة الكافرين قسمان: إن كانت في أمر لا يتعارض مع عقيدة التوحيد ، ولا يضر مصلحة المسلمين مع التبرؤ منهم قلبيًا فلا

[1] تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للشيخ السعدي ١٥١.

بأس بجوازه ، أما إذا كانت في أمر يتعارض مع العقيدة فلا شك في منعه، فإن تمادى المطيع لهم مع رضاه عنهم فإنه يخشى عليه الخروج من الملة ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، وإن كان التمادي مع عدم الرضا عنهم فهو ذنب يفوض أمر صاحبه إلى الله - تعالى- إن شاء عفا عنه وإن شاء عاقبه.

الثاني: من خرج من الملة.. يستتاب ثلاثًا، فإن عاد إلى صوابه فالله يغفر الذنوب جميعًا ، وإن لم يعد إلى صوابه قتل؛ لقول النبي ﷺ : ((**من بدل دينه فاقتلوه**))[1]. وتعطيل الحدود هو الذي جرأ الكثيرين على الدين، فجعلهم يأتون بأشياء لا يقبلها عقل ولا شرع تحت ما يسمونه بسياسة المصالح.

المعنى العام :

يحذر الله - تعالى- عباده المؤمنين من طاعة الكافرين والمنافقين؛ لأن طاعتهم تورث الردى في الدنيا والآخرة.. ﴿يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ .

فالهلاك الدنيوي بالخضوع لسلطانهم وامتهانهم لكم كما نرى الآن أثر موالاة المسلمين لهم فيحرمون مما وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات من استخلافهم في الأرض بالسيادة والملك ، ومن تمكن دينهم وتبديلهم من بعد خوفهم أمنًا والهلاك الأخروي: هو عذاب المجرمين مع الحرمان مما وعد الله المتقين.

وإذا كان السبب في موالاة وطاعة الكافرين هو رجاء الحماية ، وابتغاء النصر على أيديهم، فإن الله - تعالى- يذكرهم بحقيقة النصر والحماية.

﴿بَلِ اللَّهُ مَوْلاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ﴾ فهذه هي الجهة التي يطلب المؤمنون عندها الولاية، والنصر.. فمن كان الله مولاه، فلا حاجة إلى أحد.. فهو ناصره وهو متولي شئونه ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾

---

(١) سبق تخريجه.

[الأنفال: ٤٠].

فإن سنته - تعالى - أنه يتولى الصالحين: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وأَنَّ الكَافِرِينَ لا مَوْلَى لَهُمْ﴾ [محمد: ١١].

ومن هنا أخذ النبي ﷺ جوابه لأبي سفيان، - حين قال - بعد وقعة أحد التي نزلت فيها هذه الآيات: «**لنا العزى ولا عزى لكم**» إذ أمر النبي ﷺ بأن يجاب: «**الله مولانا ولا مولى لكم**» [1].

وإذا كان الله هو - مولاكم وناصركم - إذا قمتم بشروط النصر من الإيمان والعمل الصالح فهل تحتاجون إلى أحد من بعده ﴿وهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ﴾ ؟!!

ثم يمضي السياق.. يثبت قلوب المؤمنين، ويبشرهم بإلقاء الرعب في قلوب أعدائهم ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ بسبب إشراكهم بالله ما لم ينَزل به سلطانًا من عقل أو شرع.

والوعد من الله الجليل القادر القاهر بإلقاء الرعب في قلوب الذين كفروا ، قائم في كل معركة يلتقي فيها الكفر بالإيمان.

ولكن الأهم أن توجد حقيقة الإيمان في قلوب المؤمنين.

ما ترشد إليه الآيات الكريمة :

١- رحمة الله - تعالى- بعباده المؤمنين حيث يحذرهم مما فيه مضرتهم.

٢- لن يرضى المشركون عنا إلا إذا اتبعنا ملتهم.

٣- موالاة الكافرين لا تأتي إلا بالخسران في الدارين.

٤- الله مولى المؤمنين، والكافرون لا مولى لهم.

٥- تثبيت قلوب المؤمنين من أسلحة النصر، وكذا الإيمان والعمل الصالح.

٦- إلقاء الرعب في قلوب الكافرين من أهم أسلحة النصر.

٧- الهلاك في الدارين مصير المعرضين عن منهج الله - تعالى-.

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٦/٢١٣.

لا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم

النداء السادس

يقول الله - تعالى-:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَّوْ كَانُوا عِندَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١٥٦) وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (١٥٧) وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴾ [آل عمران: ١٥٦-١٥٨].

معاني المفردات والتراكيب :

﴿ وَقَالُوا لإِخْوَانِهِمْ ﴾ : الأخوة لها استعمالات كثيرة، تستعمل في أخوة النسب. قال الله - تعالى-: ﴿ وَإِن كَانُوا إِخْوَةً رِّجَالاً وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ ﴾[النساء: ١٧٦]. وتستعمل في أخوة الدين﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾[الحجرات:١٠] وقد تستعمل في أبناء جنسية معينة.. كما يقال: **(يا أخا العرب)**.

﴿ إِذَا ضَرَبُوا فِي الأَرْضِ ﴾ : الضرب في الأرض بمعنى: السعي فيها لجلب الرزق ونحوه.

﴿ أَوْ كَانُوا غُزًّى ﴾ : غزًّى جمع غازٍ.

﴿ حَسْرَةً ﴾ : الحسرة الشديدة ، أو: الحزن الشديد على ما فات.

﴿ لإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴾ أي: إلى الله مرجعكم جميعًا للحساب والجزاء.

مناسبة الآيات لما قبلها :

لما فر مَنْ فر ، وقتل مَنْ قتل في أحد ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ [آل عمران:١٥٥]. وندم مَنْ ندم وشَمت من شمت من المنافقين والكافرين.. نهى الله المؤمنين عن مشابهة الكافرين في الندم والشماتة، فقال: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا.. ﴾.

سبب النزول :

لما قتل من قتل في غزوة أحد: حزن إخوانهم في النسب والمخالفين لهم

في العقيدة الذين تخلفوا عن الجهاد في أحد، فقالوا ما حكاه القرآن عنهم: ﴿لَّوْ كَانُوا عِندَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا...﴾ (١).

من لطائف القرآن الكريم :

الأولى: في قوله - تعالى -: ﴿لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا...﴾ نَهى عن مجرد المشابهة لهم في بعض عباراتهم المخالفة للدين فمن باب أولى ينهون عن الانسلاخ من الدين ، نسأل الله الموافاة على الإسلام ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١].

الثانية: العندية في قوله: ﴿لَّوْ كَانُوا عِندَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا...﴾ لا يراد بها عندية المكان ، بل عندية المنهج ، بمعنى: أن المتخلفين عن الجهاد يسلمون من القتل حتى ولو كانت ديارهم خارج ديار المنافقين!!! [وهم كاذبون في هذا المعتقد].

الثالثة: في تقديم الضرب في الأرض على الغزو وإشارة إلى الأعم الأغلب لأن الأسفار لجلب الأرزاق ونحوها والقليل منها: للغزو ، وقد فاتَهم خير كثير ، ورحم الله الإمام الشافعي حيث قال :

سافر تجد عوضًا عمن تفارقه   وانصب فإن لذيذ العيش في النصب (٢)

الرابعة: كلمة (**حسرة**) نكرة تفيد التعظيم ، وذلك أن تحسر المنافقين على ما فاتَهم قد بلغ مبلغًا عظيمًا لفساد عقيدتِهم وسوء طويتهم.

الخامسة: في قول الله - تعالى-: ﴿وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ : والتعبير بصيغتي المضارع إشارة إلى تجدد ظاهرة الحياة والموت مع عدم اقترانِها بالسفر ، ونقول لهم: كأنكم لم تروا أبدًا ميتًا في فراشه.. أو مقتولاً يسقط عليه جدار!!

هل كل من يموت أو يقتل يكون ضاربًا في الأرض لشيء أو خارجًا للجهاد في سبيل الله؟!!!

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٢/١٢٧.

(٢) راجع ديوان الإمام الشافعي - رحمه الله تعالى- .

الأحكام الفقهية :

الأول: من أركان الإيمان: الإيمان بالقضاء والقدر :

هؤلاء المنافقون كان نفاقهم عقديًا؛ لأنهم لم يؤمنوا بالقضاء والقدر، وقد ظهر ذلك من كلامهم: ﴿ لَّوْ كَانُوا عِندَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا... ﴾ وقد وصفهم القرآن بالكفر في قوله: ﴿ لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا... ﴾. وفي حديث جبريل عليه السلام: ((**وأن تؤمن بالقدر خيره وشره، حلوه ومره...**)) [(١)].

الثاني: فيمن قال هذه العبارة من المسلمين :

قد يتلفظ مسلم بهذه العبارة: ﴿ لَّوْ كَانُوا عِندَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا... ﴾ فإن كان يعتقد أن الخروج هو المميت أو القاتل، فهذا كفر بواح ، وإن كان يقولها من باب الحزن أو التحسر وهو يعتقد أن كل شيء بقضاء الله وقدره ، فهي معصية نسأل الله أن يغفرها له.

الثالث: أن كل شيء بمشيئته تعالى :

نفهم ذلك من قوله - تعالى -: ﴿ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ... ﴾ ، ومن قول الله - تعالى-: ﴿ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾[البروج: ١٦]. ومن قول النبي ﷺ : ((**ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن**)) [(٢)].

الرابع: الإيمان بالبعث والحشر :

ونستنبط ذلك من قول الله - تعالى-: ﴿ وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴾.

والآيات والأحاديث في هذا الشأن كثيرة، منها قوله - تعالى -: ﴿ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلاَّ كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [النحل: ٧٧]، وقوله - سبحانه- : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَى فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [الروم:٢٧] ، ﴿ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم

---

(١) رواه مسلم، كتاب: الإيمان، باب: بيان الإسلام والإيمان والإحسان، حديث (٨)، وأبو داود، حديث (٤٦٩٥)، والترمذي، حديث (٢٦١٠)، والنسائي، حديث (٤٩٩٠)، وابن ماجه، حديث (٦٣)، كلهم بدون لفظ: حلوه ومره .

(٢) **ضعيف**: رواه أبو داود، كتاب: الأدب، باب: ما يقول إذا أصبح، حديث (٥٠٧٥)، والنسائي في الكبرى (٦/٦) حديث (٩٨٤٠) وضعفه الألباني في ضعيف أبي داود .

بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ [الأنعام: ١٦٤]. والأحاديث عن البعث والجزاء والشفاعة كثيرة جدًّا من بينها: ما جاء عن النبي ﷺ: «.. **والله لتموتن كما تنامون، ولتبعثن كما تستيقظون، ولتجزون بالسوء سوءًا وبالإحسان إحسانًا**»[١].

المعنى العام :

يحذر الله ﷻ عباده المؤمنين أن يكونوا كالكافرين.. أولئك الذين تصيبهم الحسرات كلما مات لهم قريب ، وهو يضرب في الأرض ابتغاء الرزق ، أو قتل وهو يجاهد في سبيل الله.

يقولون لفساد تصورهم لحقيقة ما يجري في الكون ، وذلك بسبب انقطاعهم عن الله: ﴿ لَّوْ كَانُوا عِندَنَا مَا مَاتُوا ومَا قُتِلُوا... ﴾ إذن، فالله - سبحانه - يصور لهم ما يقولونه ليعذبَهم به!!! كيف؟ لأنهم يعتقدون أن سبب الموت أو القتل عدم منعهم من الخروج، فكلما ذكروا قتلاهم أو موتاهم يعرفون أنهم أخطأوا.. وهذه حسرة في قلوبهم. فأراد ربنا أن يجعل ذلك حسرة في قلوبهم.

إن القضية الإيمانية هي: ﴿ واللَّهُ يُحْيِي ويُمِيتُ ﴾ أي: هو الذي يهب الحياة.. وهو الذي يهب الموت ﴿ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وتُخْرِجُ الحَيَّ مِنَ المَيِّتِ وتُخْرِجُ المَيِّتَ مِنَ الحَيِّ وتَرْزُقُ مَن تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [آل عمران: ٢٧] ، ﴿ أَلا لَهُ الخَلْقُ والأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ العَالَمِينَ ﴾ [الأعراف: ٥٤].

ولذلك يقول خالد بن الوليد رضي الله عنه لقد شهدت مائة زحف أو زهاءها[٢] وما في جسدي موضع شبر إلا وفيه ضربة سيف أو طعنة رمح ، وهأنذا أموت على فراشي كما يموت العير- أي حتف أنفه وليس مقتولاً- فلا نامت أعين الجبناء[٣].

فأحمق الحمقى ، من يختار لنفسه المصير البائس.. وهو ميت على كل حال، ويقول الشاعر :

ألا أيها الزاجري أحضر الوغى وأن أشهد اللذات هل أنت مخلدي

---

(١) أخرجه ابن عساكر بسند حسن.

(٢) أي: قريب منها.

(٣) تفسير الكشاف (١/ ٤٧٤) .

أي: يا من تمنعني أن أحضر الحرب، هل تضمن لي الخلود ودوام البقاء إذا أحجمْتُ عن القتال.

فإن كنت لا تستطيع دفع منيتي فدعني أبادرها بما ملكت يدي[1]

أي: إذا كنت لا تستطيع أن تدفع عني الموت إذا جاء أجله، فاتركني أواجهه بما أستطيع إذ لا تقديم ولا تأخير للأجل.. قال الله - تعالى-: ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ولا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ [النحل: ٦١].

﴿ واللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ أي: علمه محيط، وهو مطلع على جميع خلقه، لا يخفى عليه من أمورهم شيء، وهو مجازيهم وفق أعمالهم.

﴿ ولَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ ورَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (١٥٧) ولَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴾ أي: أخبر - تعالى - أن القتل في سبيله أو الموت فيه ليس فيه نقص ولا محذور ، وإنما هو مما ينبغي أن يتنافس فيه المتنافسون ؛ لأنه سبب مفض وموصل إلى مغفرة الله ورحمته ، وذلك خيرٌ مما يجمع أهل الدنيا من دنياهم ، وأن الخلق أيضًا إذا ماتوا أو قتلوا بأي حالة كانت، فإنما مرجعهم إلى الله، ومآلهم إليه ، فيجازي كلاً بعمله ، فأين الفرار إلا إلى الله ، وما للخلق عاصم إلا الاعتصام بحبل الله !!

وفي الآية الأولى: ﴿ ولَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ ﴾ قُدم القتل؛ لأنها جاءت في المقاتلين والغالب: يكون سبب القتل أكثر.

وفي الآية الثانية: ﴿ ولَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ ﴾ قدم الموت؛ لأنها جاءت لبيان أن مصير جميع العباد ومرجعهم يوم القيامة يكون إلى الله ، فلذا قدم الموت هنا على القتل، وبذلك تطمئن القلوب إلى مكان من ابتلاء جرى به القدر ، وإلى ما وراءه من حكمة وجزاء.

* * *

---

(١) البحر المحيط.

مشروعية الرباط
النداء السابع

يقول الله - تعالى-:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾

[آل عمران: ٢٠٠].

مناسبة الآية لما قبلها :

لما ذكر الله عزَّ وجلَّ فريقًا من أهل الكتاب آمنوا بما نزل على نبيهم عليه السلام وآمنوا بما نزل على محمد ﷺ واتصفوا بصفات المؤمنين من خشوع وعمل صالح. وأنهم من الفائزين في الدارين.. ثم حض المؤمنين على ما يوصلهم إلى الفلاح وهو: الفوز والسعادة والنجاح ، وأن الطريق الموصل إلى ذلك: لزوم الصبر والمصابرة والمرابطة والتقوى.

من لطائف القرآن الكريم :

الأولى: سار أسلوب القرآن - في هذه الآية على نمط الترقي فبدأ بالصبر وهو: حبس النفس على ما تكره من قبل النفس أو القرين الملازم لها ، وثنىَّ بالمصابرة على أذى الغير ، ثم ثلَّث بالمرابطة وهي الصبر على الأذى المتوقع من غير المسلمين ثم ختم الآية بالأمر بالتقوى وهو أمر عام بفعل جميع المأمورات ، وترك جميع المنهيات.

الثانية: الجهاد في سبيل الله ، وكذا الرباط من أفضل القربات.. يقول - صلوات الله وسلامه عليه -: «**مثل المجاهد في سبيل الله كمثل الصائم القائم ، القانت بآيات الله، لا يفتر من صلاة ولا صيام حتى يرجع المجاهد في سبيل الله**»[1].

وكان الفضيل بن عياض - رحمه الله - من الملازمين للمسجد الحرام كثيرًا، فلما رآه عبد الله بن المبارك أراد أن يلفت نظره إلى ما

(١) رواه مسلم، كتاب: الإمارة، باب: فضل الشهادة في سبيل الله، حديث (١٨٧٨)، والترمذي، حديث (١٦١٩)، وأحمد في مسنده (٢/٤٢٤) حديث (٩٤٧٧)، ومالك في الموطأ (٢/٤٤٢) حديث (٩٥٦).

هو أهم فكتب إليه بهذه الأبيات :

يا عابد الحرمين لو أبصرتنا لعلمت أنك في العبادة تلعب
من كان يخضب خده بدموعه فنحورنا بدمائنا تتخضب
أو كان يتعب خيله في باطل فخيولنا يوم الصبيحة تتعب
ريح العبير لكم ونحن عبيرنا وهج السنابك والغبار الأطيب

فلما قرأها الفضيل ذرفت عيناه، وقال: صدق أبو عبد الرحمن ونصحني[(١)].

الأحكام الفقهية :

الأول: حكم الصبر :

حكم الصبر يختلف باختلاف العمل المشروع للمسلمين فالصبر بالنسبة لأداء الصلاة وإقامتها واجب ، وبالنسبة للزكاة حتى تؤدى على الوجه الصحيح واجب ، وبالنسبة على باقي الصدقات أمر مندوب... وهكذا.

الثاني: حكم الرباط :

والرباط من أفضل الأعمال ، وطريق من طرق الفلاح؛ لقول الله - تعالى- بعد أن أمر بالرباط: ﴿... وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾؛ ولقول النبي ﷺ: «**رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما فيها**»[(٢)].

إلا أن الرباط يختلف باختلاف حالاته.. فإذا عيَّن الإمام واحدًا من المسلمين للمرابطة في ثغر من الثغور صار الرباط واجبًا، وإذا كان الأمر متروكًا لمن يبادر بنفسه فهو فرض كفاية إذا قام به البعض سقط الوجوب والإثم عن الباقين.. وإذا لم يقم به أحد أثم الجميع، وإذا كانت الثغور محمية ، والمسلمون يتنافسون في هذا العمل.. فهو من فضائل

(١) ذكره الحافظ ابن عساكر في ترجمة عبد الله بن المبارك، وانظر: تفسير القرآن العظيم ٢/١٧٦، ١٧٧.

(٢) جزء من حديث رواه البخاري، كتاب: الجهاد، باب: فضل رباط يوم في سبيل الله، حديث (٢٨٩٢)، والترمذي، حديث (١٦٦٤)، وأحمدُ في مسنده (٣٣٩/٥) حديث (٢٢٩٢٣) .

الأعمال.

المعنى العام :

نادى الله - تعالى - المؤمنين وحضهم على أن يسلكوا طريق الفلاح في الدارين وأن الطريق الموصل إلى ذلك: لزوم الصبر الذي هو حبس النفس على ما تكرهه ، من ترك المعاصي ، ومن الصبر على المصائب ، وعلى الأوامر الثقيلة على النفوس ، فأمرهم بالصبر على جميع ذلك. كما رغبهم في المصابرة وأمرهم بها وهي: الملازمة والاستمرار على ذلك على الدوام ، ومقاومة الأعداء في جميع الأحوال ، والمرابطة: وهي لزوم المحل الذي يخاف من وصول العدو منه ، وذلك لمراقبة الأداء ومنعهم من الوصول إلى مقاصدهم ، لعل المؤمنين يفوزون بالمحبوب الديني والدنيوي والأخروي ، وينجون من المكروهات كذلك. والله الموفق ولا حول ولا قوة إلا به[1].

ما ترشد إليه الآيات الكريمة :

١- الصبر والمصابرة والمرابطة من شعب الإيمان المؤدية بأصحابها إلى طريق الفلاح.

٢- أن الإيمان: عقيدة وقول وعمل... ولا يتم الإيمان إلا بذلك.

٣- أن مشاق التكاليف لا يتحملها إلا المؤمنون الصابرون.

* * *

(١) تيسير الكريم الرحمن ١٦٢، ١٦٣.

obeikandl.com